شيخ اللسانيات

المغفور له عبد الرحمن الحاج صالح

الدكتور صالح بلعيد
رئيس المجلس الأعلى للغة العربية
- الجزائر-

.كلمة وفاء:

* يقول تعالى ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضيةً مرضيةً فادْخلي في عبادي وادْخلي جنتي**﴾ نعظّم الأجر لأنفسنا وللجزائر التي فقدت قامة سامقة في ميدان اللسانيات وهذا التعظيم لا يعني أن يكون لنا موقفٌ من ردّ القضاء، وإنّما نقول: هذا ممّا كتبه الله على البشر، فلا خلودَ في هذه الدنيا، ولا رادّ لقضائه، وكما يقول الشاعر:

وإذا خشيتَ من الأمورِ مُقدّراً وفرَرتَ منه فنَحوَهُ تتوجّهُ

وانطلاقاً من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «اذكروا محاسن موتاكم» فكلمة وفاء أقولها في حقّ شيخي الذي لولاه لما كنتُ في العلم ما كنتُ عليه، وهو من بين المسهمين في أن تعلّمت وأخذت عنه، ومما أخذت أعطي منه، وكما يُقال: الوعد وجه، والإنجاز محاسنة، والوعد سحابة والإنجاز مطره. هي رشفات من تلك الينابيع التي نهلتُ منها، وهي نظرات في المؤلّفات التي صنّفها، فلقد عثرت في أعماله على فجّ من فجاج البحر، وعلى عرصة من العرصات المليئة بالجواهر، وقد أفادتني في حياتي المهنية. ويبقى الوفاء لشخص أستاذنا كما كان حياً، ويتواصل وهو من الرموس مع أعماله وطلابه وأبحاثه ومنجزاته. أستاذنا من العقول الراقية التي تتكلّم في الأفكاروفي بناء

المشاريع، ويبتعد في الكلام عن الأحداث، فهو الذي ينصح ويقول: انزلوا الناس منازلهم، وابتغوا للنفوس مقاماتها، واهتموا بالأبدان، وابتغوا لها الطرائف فإنّ النفوس ملال، والآذان مجابة، وفي السكوت والانتقال تطييب وتنشيط، وابتغوا لها الحكمة في التعليم فإنّ تدمير الأمّة يكمن في تخفيض التعليم، ولن تقوى الأمّة دون أن تتعلّم، ولا تتعلّم دون أن تخطئ، ولن تنجح دون أن تفشل، وسيروا على قدر علمائكم، ولا تكونوا مع الذين يقولون: سيروا على قدر الضعاف فالزمن لا ينتظر، وإنّ عدم معالجة أوضاع التحسين يؤدّي إلى التدجين.

. الحاج صالح واللسانيات: إنّه شيخ اللسانيات؛ فهو الذي فتح هذا المجال أواخر الستينيات ويومها لم يظهر هذا العلم في صورته المعاصرة، وكان الباحث يلقي دروسه في هذا العلم الجديد ويربطه بالبحث في فقه اللغة، وكان يسميه آنذاك (علم اللسان) باعتبارها يعالج الظواهر اللسانية من عدة جوانب، وأهمّها الرياضيات والمنطق الرياضي في قسمة التراكيب الخاصّة **Combinatoire**. وبالحقّ كان الأستاذ المؤسّس لهذا العلم الذي نظر إليه من خلال علم المعلوميات؛ حيث تحدّث آنذاك عن العمل الجادّ لتقليص الفجوة الرقمية بعاملين:

1. تعميم استعمال الحاسوب.

2. انتقاء المتميّزين من التلاميذ ويخصّص لهم تكوين عالٍ في الحاسوبيات، ثمّ العمل على تعميم العمل بالحواسيب لتحصل النقلة المطلوبة.

وفي هذا المجال، فقد طُرح عليه سؤال «ما هي السبل الكفيلة في نظركم بإنجاح مشروع الإصلاح اللغوي العربي؛ نقصد تحديداً أهمّ القضايا التي يجب أن ترتكز عليها البحوث اللسانية العربية إن أرادت مسايرة الركب، والانتقال من مرحلة الاستهلاك إلى مرحلة الإنتاج؟ فأجاب: «سبق أن قلت هنا أنّه يجب أن لا نعطي للسانيات أكثر ممّا تستحقّه من الأهمية، فلماذا نريد أن يكون دورها أهمّ من أخواتها في العلوم الإنسانية، ثمّ قد تكون اللسانيات

الغربية عائقاً؛ ونعني النظريات الكثيرة والمتضاربة، وتصبح مثل المذاهب الدينية تبنى على الإيمان والاعتقاد أكثر ممّا تبنى على التجربة والاستدلال».

.الحاج صالح والبحث العلمي: لا يمكن الحديث عن الحاج صالح إلاّ وتجد له موقعاً ضمن البحث العلمي المضيف في إطاره المنيف، من حيث السمات التي يتّصف بها، وهي:

.الصرامة الأكاديمية والوقار العلمي؛

.المتابعة المستمرّة للوصول إلى النتائج المضمونة؛

.البحث في التراث العربي القديم؛

.البحث في الفكر اللغوي الغربي؛

.إجراء الدراسات التقابلية؛

.الوصول إلى نقد النظريات الغربية، وكشف بعض النقائص في بعضها من حيث خلوّ بعضها من المنطق الرياضي: ضعف منطق لغوي في البنوية+ اقتصار الوظيفية على اللغة الفرنسية، وافتقارها إلى صفة الشمول؛

.استخلاص نظرية تراثية حديثة تراعي الخصائص الطبيعية للغات، وما يمكن أن يدخل في التكييف اللغوي حسب مقتضيات العلم المعاصر. وهي **النظرية الخليلية الحديثة.**

.الحاج صالح والنظرية الخليلية الحديثة: وهي نسبة إلى الشيخ الكبير (الخليل بن أحمد) مُنظّر العربية، وصاحب ثُلث اللغة، فهو الرياضي الأوّل الذي أعطى تشجيرات نحوية في صورة منطق اللغة حسب ما كان البدوي يتلاغى بهذه اللغة التي قامت في ذهنه أنماطها التجريدية. ويأتي أتباعه من مثل (سيبويه) لمواصلة درب بناء مسار المنطق الرياضي اللغوي، في مدرسة سمّاها مدرسة الخليل بن أحمد. والحاج صالح استخلص منها منهج نظرية قائمة بذاتها لما لها من صفات النظرية المبنية على القواعد المعتدّ بها في الدرس اللساني المعاصر، وهي:

1 - الاتّساق والمنطق.

2 - الشمول.

3 - الامتداد في الزمان+ المكان.

4 - تكوين المريدين.

5 - قبول النظرية للتكيّف.

وأمام هذا، فلا مندوحة بأنّ الشمول للنظرية اللغوية يُعطي لها أبعادُ النظرية التي لا تموت، بل يكون لها صفة الديمومة، وخاصّة عندما يعمل المُريدون على تطويرها وفْق المُستجدات، وتنال التطبيق في الواقع، وهذا ما هو حاصل في النظرية الخليلة الحديثة. وهو الذي يقول عن هذه النظرية بأنّها العلاج التحليلي للغة العربية، ولكن يجب أن تنال النقد الذي يعمل على تحسينها «... فنريد أن يكون نقداً بناءً لكلّ ما ظهر إلى الآن من النظريات ومشروعاً –لا مذهباً- أساسه الاختبار بكلّ الوسائل العلمية والاختبار عندنا هو أكثره تطبيق، فكلّما نجحت فكرة في التحليل بأن شملت عدداً كبيراً من الظواهر واقبل عليها المهندسون من أهل العلاج الالي للغة استبشرنا بها، فإن لم يكن هذا معمولاً به في جميع البلدان العربية، فهو على كلّ حال شيء منه عندنا في مدرستنا الخليلية الحديثة، وهو يوجد أيضاً في البحث في جهات كثيرة من الوطن العربي، والحمد لله دون أن تكون الأفكار هي هي، فالذي أنتقده وأنفرُ منه هو التهجّم الشديد على نحاتنا دون أن يجرى بحث دقيق في ذلك يدوم السنين، كما أنفرُ من الاعتماد الكلي المطلق على مذهب واحد أو على نظرية واحدة، ونبذ سواها نبذاً مُطلقاً».

ويمكن التركيز على معالم هذه النظرية الخليلية الحديثة وفق دراستنا لها من حيث معالمها الكبيرة وهي:

. اللغة وضع واستعمال؛

. مفهوم الباب؛

. مفهوم المثال؛

.مفهوم القياس؛

.مفهوم الأصل والفرع؛

.مفهوم الانفصال والابتداء؛

.مفهوم اللفظة والعامل.

.عالمية الأستاذ الحاج صالح: تكمن عالميةُ الأستاذ الحاج صالح في ما يلي:

- دراساته في الجامعة الفرنسية، ثمّ في الأزهر الشريف؛

.تدريسه في المغرب، ومروره على مختلف المراحل التعليمية؛

- إتقانه الفرنسية والإنجليزية؛

.حصوله على جائزة الملك فيصل للغة العربية؛

- مشاركاته العالمية؛

- إشرافه على طلاب من سوريا، أمريكا، فرنسا؛

.إشرافه على مئات الطلاب من الطلبة الجزائريين في الماجستيروالدكتوراه؛

- تنقّلاته العلمية في الداخل وفي الخارج؛

- عضويته في أربعة مجامع عربية؛

- مشاريعه العالمية التي تعدّت حدود الوطن؛

- ما تركه من تنظير عالمي.

.الحاج صالح والمشاريع الكبرى: إنّه صاحب المشاريع الكبرى، وأذكر معالمَها الكبرى:

1. حوسبة العربية: وكان ينادي لهذا المشروع منذ 1969 باستخدام الحاسوب في صورته الكبيرة آنذاك، وكان يعتمد على الجُذاذات في البداية، واستطاع من خلال ذلك حصرَ القرآن الكريم، وحوسبة المدوّنة الأولى في التراث العربي بمسح العصر الجاهلي إلى نهاية عصر الفصاحة.

2. تحديث النظرية العربية: وهذا بالربْط بين الأصالة والحداثة من خلال التأسيس للحوسبة والرقمنة وهذا منذ أوائل السبعينيات.

3. جمْع الرصيد الوظيفي المغاربي: بمعية (أحمد العايد) من تونس، و(لخضر غزال) من المغرب وأُنجز هذا العمل سنة 1979، وكان غرضه توحيد الألفاظ والمصطلحات التي يستعملها التلميذ في البلاد المغاربية؛ وصولاً إلى لغة مشتركة. وكان هذا العمل يدخل في إطار توحيد الجهود المغاربية لإحلال العربية المقام الأولي في التعريب.

4 . جمْع الرصيد اللغوي العربي: وانتهى العمل منذ سنة 1984، وكان مسح هذا الرصيد على مستوى 16 دولة عربية، وغرضه الدفع بهذه المصطلحات إلى وزارات التربية في الوطن العربي وإدماجها في الكتاب المدرسي، بغية توحيد لغة التلميذ، باعتبارها لغة القاعدة، فإذا توحّدت القوالب القاعدية يحصل الانسجام اللغوي بقواسم مشتركة. وكان هذا العمل القومي يدخل في مواصلة التعريب الذي كانت الأمّة العربية تستهدفه من خلال الدفع بمشاريع التعريب أن تبدأ من تهيئة المدرسة.

5 . الذخيرة اللغوية: وهو مشروع عربي كبير، غرضه جمع كلّ التراث العربي من مرحلة ظهور اللغة العربية في صوَرِها الأولى، من أرومة اللّغات الحامية السامية، وكيف تطوّرت الألفاظ والمسكوكات والأمثال والحِكَم، وهذا على مستوى الاستعمال بالفعل في البداية؛ لأنّ اللغة وضع ثمّ استعمال. وهذا المشروع هو شابكة عربية، غرضه أن ينتفع به كلّ باحث متقص علم حيث يُفيده سريعاً بكلّ ما يخطر على بال المستعمِل للغة العربية، ومهما كان مُستواه، بل يُجيبه الذكاء الصناعي عن كلّ ما يخطر في البال من أسئلة بخصوص العربية في كلّ حقولها. وهذا المشروع ليس من الهيّن بلب هو عمل قومي جبّار يحتاج إلى أرمادة من الوسائل والإمكانيات المادية، وإلى المناطيق المعاصرة التي تعمل على حوسبة التراث العربي الكبير والمتوزّع في كثير من اللغات.

إنّ الحديث عن هذا العالم الكبير، الحاج صالح، حديث عن الأفكار التي زرعها فينا، وعن تلك الطرائق العلمية التي كان يوصينا بها، وهو الذي يفصل

بين العلم كعلم له أطره التي لا تسامح فيها، لأنّ العلم له مُحدّداته الغائبة التي لا بدّ أن تتحقق عند الخاصّة من الباحثين، وعليه فإنّ المحددّات التي كان يوصينا بها هي:

ـ التحكّم في الأصالة في ظلّ الانفتاح على الحداثة: فمن تحكّم في المتن اللغوي القديم يسهل عليه التحكّم في الممارسة المعاصرة. وأما العكس يصعب أن يحصل ذلك. وهذا ما كان يقوله بأنّ ما أخذه من جامعة Bor-deaux/ بوردو لم يمكّنه التمكّن الجيّد إلاّ بعد أن درس بالأزهر، واستوعب آمالي الخليل؛ وبخاصة كتاب سيبويه، وخرج بنظرية سمّاها (النظرية الخليلية الحديثة).

ـ الانتقال بالعربية من وضعها النحوي إلى وضعها الاستعمالي: وهو ما كان العرب المؤسّسون يسمّوه الوجود بالقول يكون عن طريق الوجود بالفعل، وهو ما يجب أن يكون عليه (القول) إلى وضعه الفعلي (الاستعمال) في صورة تكاملية تدريجية، حيث اللغة وضع واستعمال؛ فإذا تعارضَ القانونُ اللغوي يُلتجأ إلى الاستعمال؛ يعني المزج بين التمكين بالفعل، وصولاً إلى الاستعمال اللغوي العفوي الطبيعي بمراعاة المستويات اللغوية. ولكلّ لغة أكثر من مستوى. وشيخ اللسانيات يجسّد دلك في أنّ العربية لها مستويين يتقاربان في المواقف، وهما:

1 – مستوى خطاب الانقباض؛ ويستعمل في الخطاب الرسمي، وعندما يرفع إلى من هو أعلى حيث يتشخص المتحدّث؛ بالرفع من خطابه باحترام حُرمة المقام والمتحدّث إليه.

2 - مستوى خطاب الأُنس: وهو مستوى أدنى من المستوى الانقباض، وهو يميل إلى الاختلاس والحَدْر، وهذا موجود لدى العرب في مرحلة التدوين، واستعمل هذا الخطاب في القراءة الحَدْرية للقرآن الكريم. وهذا المستوى يحصل عندما يأتي الخطاب من أعلى إلى منْ هم أدنى. أو لمن هم في نفس المستوى =

.مُرسِل ← مُتلَقٍ.

.مُتلَقٍ ← مُرسِل.

فالخطاب بصفة عامّة له هذان المستويان، وفيهما يحصل الإبداع البلاغي في توظيف نوع الخطاب والاختيار بين مُحسنات فنّون القول. وفي هذا المجال تعيشُ العربيةُ مجموعةً من المشكلات، ويمكن علاجُ هذه المشكلات باقتراح أفكار التحسين، وهذا ما رآه عندما أجاب عن السؤال التالي: «ما هي الإشكالات التي يمكن أن تطرحها العربية بوصفها لغة الإنتاج الإبداعي والتواصل القطاعي المكتوب، لا لغة التداول اليومي؟ فقال: «سبق أن قلنا بأنّ لجميع لغات البشر مستويين من التعبير المُسترسِل والمنقبض، وقد يبتعدان كثيراً أحدهما عن الآخر بأسباب تاريخية (تأثير لغة على أخرى باختلاط الناطقين بها) فيكون ردّ الفعل لأصحابها غالباً بإقصاء المستوى المُسترسِل عن التكوين والاستعمال الكتابي؛ وذلك بنفي صفة الإدراج من التعليم وإزالة صفة الاقتصاد الذي يتّصف به التخاطب اليومي، فتفقد بذلك لغة الثقافة بالنسبة إلى العربية عفويتها. وقد بدأ ذلك في أداء النصّ القرآني (وتقليد الأعراب في زمان الجاحظ والتشدّق الذي حاربه) فأصبح المُعلّمون يُبالغون في مدّ الحركات الإعرابية أكثر من اللازم في تلقينهم إياها لتلاميذهم. ولكي تقترب الفصحى من لغة التخاطب في عصرنا هذا يجب أن لا نكتفي بتفصيح الملحون العفوي؛ بل أن نعيد الاعتبار الاستعمالي للأداء الذي يستلزمه التخاطب العفوي صفاته العفوية كما وصفها العلماء الذين شافهوا فصحاء العرب. وهذا يحتاج إلى إقناع المسؤولين على التعليم، وعلى تعليم العربية في المدارس الآن ألاّ يقتصروا على تعليم المستوى المنقبض وحده في المدارس. فقد تمّ إهمال المستوى المُسترسِل من الفصحى منذ زمان بعيد؛ وهولا يقلّ عن أهمية عصر المشافهة الذي نحن فيه، فالفصحى العفوية وهي عربية قد وصفها النحاةُ الأوّلون ويقرأ بها القرآن (ويسمّى بالحَدْر، ويقابله الترتيل) ويتّصف خاصّة باختلاس الحركات وكثرة الإدغام (بين آخر كلمة وبداية أخرى مثلاً) والتسكين حيثما جاز وقَصْر المدّ، وغير ذلك

مما تمتاز به لغةُ المشافهة... وعلى هذا، فسنقترح على الهيئة العليا المُشرفة على مشروع الذخيرة العربية مشروعاً فرعياً لتهيئة الظروف لإدماج المستوى المُسترسِل في تعليم العربية (إعداد كتاب خاصّ في الأداء بتمارين شفاهية) وإعداد كتاب خاصّ بالمعلّم في هذا الإطار، وإدخال ذلك قبل كلّ شيء في مدارس تكوين المُعلّمين والمُذيعين في الإذاعة والتلفزة».

. **التحكّم في اللغات الأجنبية:** باعتبارها نافذة على التقانات والعلوم، ومختلف أنواع السلوكات اللغوية وكان يقول: «على الجيل الجديد أن يتفتح على اللغات المتقدّمة للإفادة من متنها، والعمل بها في تطوير العربية. فالمتحكّم في لغة واحدة عبارة عن أعرج هذا الزمان». ويشيد بأهمية التحكّم في اللغات الأجنبية بصورة تدريجية؛ بدءًا من المرحلة الثانوية إلى الجامعة التي يجب أن يحصل التمكين للغات الأجنبية حسب أقطابها، ولا يجب أن تنقطع الجامعة عن توظيف نفعي للّغات الأجنبية. وهو الذي يقول: «من الخطأ أن ندرّس كلّ المواد العلمية في مساقات البحوث الجامعية بلغة واحدة، بل أن تدرّس العلوم الأساسية باللغة الرسمية (العربية) ثم تكون هناك مادتان في كلّ سداسي تُدرّس بلغة القطب، حيث العلمُ لا يتواجد في لغة واحدة، وكان على الجامعة خوضُ غمار هذه اللغات كي يحصلَ التحكّم فيها».

. **التعلّم الناجح:** يقول قدماء اللغويين العرب: اللغة وضع واستعمال، ويرى أستاذنا بأنّ اللغة يحفظها اللّغوي وأحياناً يحنّطها، والدي يطوّرها هو المُبدع والمستعمل العفوي، فاللغة استعمال جماعة وفق نمط وراثي احتياطي، ووفق قواعد مبنية على عُرف استعمالي حازَ على الكثرة (التواتر) وتلك هي الفصاحة. ومن هنا يقول: «اللغة استعمال وعبّر عنها بـ (الحمام اللغوي)» فاللغة تُؤخَذ من الاستعمال؛ وبخاصّة الاستعمالَ العفويَ، وكان يقول: «إنّ عدم تحكّم الأجانب في اللغة العربية يعود إلى أنّهم لم يعيشوا حدَثَ الاستعمال العفوي» وكما كان يقول: «كان علينا إيجاد حَمام لغوي مصطنع، ووضع المتعلّم في هذا الحَمام؛ حتى يعيش أحداث اللغة بمختلف مقاماتها، ولما ترسّخ فيه تلك الاستعمالات العفوية يستطيع وحده الانقال

من كلام الأُنس إلى كلام الانقباض، أو العكس، ثم سيُراعي المتحدّث مختلف ما يُحيط بالخطاب من: مَقام- حال- مُتحدّث إليه- مُقتضيات الخطاب». ومع هذا لا ينكر ضعف المستوى العامّ لأداء مؤسّسات التعليم. وفي إجابة عن سؤال حول الموضوع يقول: «نجد اليوم شبه إجماع على ضعف العربية في مؤسّسات التعليم في مختلف الأسلاك، وهو وضع ينذر بالكارثة» وهذا ما يُلمس في الوقت المعاصر الدي تفرض فيه مُعطيات الاستعمال صُوَراً معكوسةً تماماً، ولا يرى هذا إلاّ الخطر في الوضع اللغوي إن لم يعالج في القريب. وطُرح عليه سؤالٌ حول تشخيص النظرية التي تقوم على حراسة ثغور العربية، فأجاب: «ما نلاحظه من ضعف المستوى في اللغة العربية لا تختصّ به العربية؛ بل هو يعمّ عندنا في الجزائر كلّ اللغات، وحتى المستوى العلمي. وقد يمتاز تعليم العربية بشيء من الضعف وهذا راجعٌ للمستوى الضعيف لا للمعلّم وحده؛ بل حتى الأُطر التي فوقه. والمشكل يعمّ كلّ البلدان العربية بحسب ما رأيتُه وسمعتُه، والله أعلم». ومن خلال هذا الردّ نعلم ما كان يُرافع عنه في مختلف المحافل العلمية والتربوية الوطنية من ضرورة الاهتمام بالمدرسة، وهو ما جعَلَ أولي الأمر يُسندون إليه أمرَ إصلاح المنظومة التربوية، بغرض الانتفاع من أفكاره.

.الإبداعية اللغوية: يقول اللغة في ذاتها تحمل التجديد، وهذا التجديد يأتي وفق مُقتضيات النحو ومِعيارية اللغة، فالإبداع يحصل من خلال ما يبدعه المستعمل للغة ضمن التواتر الجمعي، وهنا يلتقي مع (نعوم تشومسكي) في أنّ اللغةَ بحدودها الحَرْفية ضيّقة، ولكنّها لا تنتهي في استعمالات أساليبها، فهي لا نهائية، وهذا هو التميّز بين لغة البشر التي يتغيّر أسلوبها وثابتة في حروفها وكذلك يميل متنها النحوي إلى الثبات، ولكنّا تحمل صفة الإبداع، وبين لغة الحيوانات مثلاً فهي محدودة ولا إبداع فيها؛ فهي لغة غريزية. فالمتكلّم المثالي هو المُستعمل العفوي للغة؛ والذي يجعلها تتضّخم في مناويلها، وتسير دائماً إلى الإبداعية؛ دون التنازلِ عن نحوها العُرْفي الذي تحميه الجماعة الناطقة بتلك اللغة.